سورة النصر

وهي ثلاث آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ **في الآية لطائف:**

إحداها: أنه تعالى لما وعد محمدًا بالتربية العظيمة بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] لا جرم كان يزداد كل يوم أمره، كأنه تعالى قال: يا محمد لِمَ يضيق قلبك، ألستَ حين لم تكن مبعوثًا لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبابيل، وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف ثم الآن أزيد فأقول: إني أكون ناصرًا لك بذاتي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ فقال: إلهي إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي ومسكني. فقال: ﴿وَالْفَتْحُ﴾ فقال: إلهي لكن القوم إذا خرجوا، فأي لذة في ذلك فقال: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ثم كأنه قال: هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة؟ إنما وجدتها لأنك قلت في السورة المتقدمة: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١] وهذا يشتمل على أمور ثلاثة: **أولها:** نصرتني بلسانك فكان جزاؤه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ **وثانيها:** فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله، ﴿وَالْفَتْحُ﴾ **والثالث:** أدخلت رعية جوارحك وأعضائك في طاعتي وعبوديتي، فأنا أيضًا أدخلت عبادي في طاعتك. وهو المراد من قوله: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخِلع الثلاثة فابعث إلى حضرتي بثلاثة أنواع من العبودية؛ تهادوا تحابوا: إن نصرتك فسبح، وإن فتحت مكة فاحمد، وإن أسلموا فاستغفر. وإنما وضع في مقابلة: نصر الله تسبيحه لأن التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات، يعني تشاهد أنه نصرك، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر، بل اعتقد كونه منزهًا عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئًا، ثم جعل في مقابل فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد، ثم جعل في مقابلة دخول الناس في الدين الاستغفار، وهو المراد من قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] أي كثرة الأتباع مما يشغل القلب بلذة الجاه والقَبول، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك، واستغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر، فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر. **الوجه الثاني:** أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الخشونة

فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فقيل: يا محمد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نظيره: (زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ) يعني لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة، فمثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء: ١] بل أزيد على هذا فأُفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا، فإذا بقي الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الشعراء: ٩٠] **الوجه الثالث:** كأنه سبحانه قال: يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها ولا تدوم محنها ولا نعيمها، فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا: (اعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك) فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال: (أبشر فقد جاء نصر الله) فلما استبشر قال: الرحيل الرحيل، أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال، فاستغفره أيها الإنسان، لا تحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف، ولا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه:

إِذَا تَـمَّ أَمْـرٌ دَنَـا نَـقْـصُـهُ ... تَـوَقَّـعْ زَوَالاً إِذَا قِـيـلَ تَـمّ(١)

إلهي لم فعلت كذلك؟ قال: حتى لا نضع قلبك على الدنيا بل تكون أبدًا على جناح الارتحال والسفر. **الوجه الرابع:** لما قال في آخر السورة المتقدمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكأنه قال: إلهي وما جزائي؟ فقال: نصر الله. فيقول: وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد: ١] **فإن قيل:** فلمَ بدأ بالوعد قبل الوعيد؟ **قلنا:** لوجوه: **إحدها:** لأن رحمته سبقت غضبه. **والثاني:** ليكن الجنس متصلاً بالجنس فإنه قال: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو النصر كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[آل عمران: ١٠٦]، **وثالثها:** الوفاء بالوعد أهم في الكرم من الوفاء بالانتقام، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة، وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره. **الوجه الخامس:** أن في السورة المتقدمة لم يذكر شيئًا من أسماء الله، بل قال: ما أعبد بلفظ (ما) كأنه قال: لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم، وفي هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها مُنزلة على الأحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم، فكأنه سبحانه قال: لا تذكر اسمي مع الكافرين حتى لا يهينوه، واذكره مع الأولياء حتى يكرموه. **الوجه السادس:** قال النحويون: (إذا) منصوب بسبِّح، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله، كأنه سبحانه يقول: جعلت الوقت ظرفًا لما تريده وهو النصر والفتح والظفر، وملأت ذلك الظرف من هذه الأشياء، وبعثته إليك فلا ترده عليَّ فارغًا، بل املأه من العبودية ليتحقق معنى: (تَهَادُوا تَحَابُّوا) فكأن محمدًا عليه السلام قال: بأي شيء أملأ ظرف هديتك وأنا فقير!!

---

(١) هذا البيت منسوب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو هكذا:

إِذا تَـمَّ مَـرٌ بَـدا نَـقـصُـهُ ... تَـوَقَّ زَوالاً إِذا قـيـلَ تَـمّ

فيقول الله في المعنى: إن لم تجد شيئًا آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار. فلما فعل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك حصل معنى تهادوا، لا جرم حصلت المحبة، فلهذا كان محمد حبيب الله. **الوجه السابع:** كأنه تعالى يقول: إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس في دينك، فاشتغل أنت أيضًا بالتسبيح والحمد والاستغفار، فإني قلت: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سببًا لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة، ولا تزال تكون في الترقي حتى يصير الوعد بقولي: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ **الوجه الثامن:** أن الإيمان إنما يتم بأمرين: بالنفي والإثبات وبالبراءة والولاية، فالنفي والبراءة قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ والإثبات والولاية قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة.

واعلم أن في الآية أسرارًا، وإنما يمكن بيانها في معرض السؤال والجواب.

السؤال الأول: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقًا، وظاهره أن النصر كالسبب الفتح، فلهذا بدأ يذكر النصر وعطف الفتح عليه. **وثانيها:** يحتمل أن يقال: النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي الذي هو تمام النعمة، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] **وثالثها:** النصر هو الظفر في الدنيا على المنى، والفتح بالجنة، كما قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وأظهر الأقوال في النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب.

السؤال الثاني: أن رسول الله ﷺ كان أبدًا منصورًا بالدلائل والمعجزات، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة؟ **والجواب من وجهين: أحدهما:** المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع، وإنما جعل لفظ النصر المطلق دالاً على هذا النصر المخصوص؛ لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمعدوم، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] **وثانيهما:** لعل المراد نصر الله في أمور الدنيا الذي حكم به لأنبيائه، كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

السؤال الثالث: النصر لا يكون إلا من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] **فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ والجواب: معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا** يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته، ويقال: (هذا صنعة زيد) إذا كان زيد مشهورًا بإحكام الصنعة، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة، فكذا ههنا، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] فيقول: هذا الذي سألتموه.

السؤال الرابع: وصف النصر بالمجيء مجاز، وحقيقته إذا وقع نصر الله، فما الفائدة في ترك الحقيقة وذكر المجاز؟ **الجواب فيه إشارات: إحداها:** أن الأمور مربوطة بأوقاتها، وأنه سبحانه قدَّر

لحدوث كل حادث أسبابًا معينة وأوقاتًا مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل، فإذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، **وثانيها:** أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد ﷺ، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقًّا له بحكم الوعد، فالمقتضى كان موجودًا إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق، فإن ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة، فالثقيل يكون كالمشتاق إلى الهوى، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد ﷺ. **وثالثها:** أن عالَم العدم عالَم لا نهاية له وهو عالم الظلمات، إلا أن في قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وإيجاده، ثم انشعبت بحار الجود والأنوار وأخذت في السيلان، وسيلانها يقتضي في كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين، فبحار رحمة الله ونصرته كانت آخذة في السيلان من الأزل، فكأنه قيل: يا محمد قرب وصولها إليك ومجيئها إليك، فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار، فهذه الثلاثة هي السفينة التي لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] **السؤال الخامس:** لا شك أن الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والأنصار، ثم إنه سمى نصرتهم لرسول الله: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فما السبب في أن صار الفعل الصادر عنهم مضافًا إلى الله؟ **الجواب:** هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر، وذلك لأن فعلهم فعل الله، وتقريره أن أفعالهم مسندة إلى ما في قلوبهم من الدواعي والصوارف، وتلك الدواعي والصوارف أمور حادثة، فلا بد لها من محدث وليس هو العبد، وإلا لزم التسلسل، فلا بد وأن يكون الله تعالى، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد، فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى، **فإن قيل:** فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد مفرعًا على فعل الله تعالى، وهذا يخالف النص؛ لأنه قال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] فجعل نصرنا له مقدمًا على نصره لنا. **والجواب:** أنه لا امتناع في أن يصدر عن الحق فعل، فيصير ذلك سببًا لصدور فعل عنا، ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية.

السؤال السادس: كلمة: (إذا) للمستقبل، فههنا لما ذكر وعدًا مستقبلاً بالنصر، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فذكر ذاته باسم الله، ولما ذكر النصر الماضي حين قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ [العنكبوت: ١٠] فذكره بلفظ الرب، فما السبب في ذلك؟ **الجواب:** لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار ربًّا، وقبله ما كان ربًّا لكن كان إلهًا.

السؤال السابع: أنه تعالى قال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وإن محمدًا عليه السلام

نصر الله حين قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فكان واجبًا بحكم هذا الوعد أن ينصره الله، فلا جرم قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فهل تقول بأن هذا النصر كان واجبًا عليه؟

الجواب: أن ما ليس بواجب قد يصير واجبًا بالوعد، ولهذا قيل: وعد الكريم ألزم من دين الغريم، كيف ويجب على الوالد نصرة ولده، وعلى المولى نصرة عبده، بل يجب النصر على الأجنبي إذا تعين بأن كان واحدًا اتفاقًا، وإن كان مشغولاً بصلاة نفسه، ثم اجتمعت هذه الأسباب في حقه تعالى، فوعده مع الكرم وهو أرأف بعبده من الوالد بولده والمولى بعبده وهو ولي بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة، وقيوم للتدبير وواحد فرد لا ثاني له، فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده؛ فلهذا قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: نُقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة، وهو الفتح الذي يقال له: فتح الفتوح، روي أنه لما كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ أغار بعض من كان في عهد قريش على خزاعة وكانوا في عهد رسول الله ﷺ فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه، ثم قال: «**أَمَا إِنَّ هَـٰذَا الْعَارِضَ لَيُخْبِرُنِي أَنَّ الظَّفَرَ يَجِيءُ مِنَ اللَّهِ**» ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**انْظُرُوا فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ يَجِيءُ وَيَلْتَمِسُ أَنْ يُجَدِّدَ الْعَهْدَ**» فَلَمْ تَمْضِ سَاعَةٌ أَنْ جَاءَ الرَّجُلُ مُلْتَمِسًا لِذَلِكَ، فَلَمْ يُجِبْهُ الرَّسُولُ وَلاَ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ، فَالْتَجَأَ إِلَى فَاطِمَةَ فَلَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ آيِسًا وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسِيرِ لِمَكَّةَ.

ثُمَّ يُرْوَى أَنَّ سَارَّةَ مَوْلاَةَ بَعْضِ بَنِي هَاشِمٍ أَتَتِ الْمَدِينَةَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَهَا: «**جِئْتِ مُسْلِمَةً؟**» قَالَتْ: لاَ، لَكِنْ كُنْتُمُ الْمَوَالِيَ وَبِي حَاجَةٌ. فَحَثَّ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَكَسَوْهَا وَحَمَلُوهَا وَزَوَّدُوهَا، فَأَتَاهَا حَاطِبٌ بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ، وَاسْتَحْمَلَهَا كِتَابًا إِلَى مَكَّةَ، نُسْخَتُهُ: اعْلَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يُرِيدُكُمْ فَخُذُوا حِذْرَكُمْ. فَخرجَتْ سَارَّةُ ونَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْخَبَرِ. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَعَمَّارًا فِي جَمَاعَةٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْكِتَابَ وَإِلاَّ فَاضْرِبُوا عُنُقَهَا، فَلَمَّا أَدْرَكُوهَا جَحَدَتْ وَحَلَفَتْ، فَسَلَّ عَلِيٌّ عليه السلام سَيْفَهُ وَقَالَ: اللهِ مَا كُذِبْنَا!! فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عَقِيصَةِ شَعْرِهَا، وَاسْتَحْضَرَ النَّبِيُّ حَاطِبًا وَقَالَ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَيْهِ؟**» فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَفَرْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ أَحْبَبْتُهُمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ، لَكِنْ كُنْتُ غَرِيبًا فِي قُرَيْشٍ، وَكُلُّ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ أَهَالِيَهُمْ، فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا!! فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَـٰذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فَفَاضَتْ عَيْنَا عُمَرَ[1].

ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بمر الظهران، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (غزوة الفتح) (٧/ ٥٩٢) حديث رقم (٤٢٧٤) ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة) باب (فضائل بدر) (٤/ ١٦١/ ١٩٤١) كلاهما من طريق عمرو بن دينار . . . به.

لعمه خاصة، فقال أبو سفيان: إما أن تأذن لي وإلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعًا وعطشًا!! فرقَّ قلبه، فأذن له وقال له: **«ألم يأن أن تسلم وتوحد؟»** فقال: أظن أنه واحد، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا. فقال: **«ألم يأن أن تعرف أني رسوله؟»** فقال: إن لي شكًّا في ذلك. فقال العباس: أسلِم قبل أن يقتلك عمر. فقال: وماذا أصنع بالعزى؟! فقال عمر: لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك. فقال: يا محمد أليس الأَوْلى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصالح قومك وعشيرتك، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك، و(لا) تعرضهم للشن والغارة. فقال عليه السلام: **«هَؤُلَاءِ نَصَرُونِي وَأَعَانُونِي وَذَبُّوا عَنْ حَرِيمِي، وَأَهْلُ مَكَّةَ أَخْرَجُونِي وَظَلَمُونِي، فَإِنْ هُمْ أُسِرُوا فَبِسُوءِ صَنِيعِهِمْ»** وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر، فكانت الكتيبة تمر عليه فيقول: من هذا؟ فيقول العباس: هو فلان من أمراء الجند. إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لا يُرى منها إلا الحدق، فسأل عنهم فقال العباس: هذا رسول الله. فقال: لقد أوتي ابن أخيك ملكًا عظيمًا. فقال العباس: هو النبوة. فقال هيهات النبوة. ثم تقدم ودخل مكة، وقال: إن محمدًا جاء بعسكر لا يطيقه أحد. فصاحت هند وقالت: اقتلوا هذا المبشر!! وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعًا شديدًا، وسأل العباس فأخبره بأمر الصلاة. ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعًا وشكرًا، ثم التمس أبو سفيان الأمان، فقال: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»** فقال: ومن تسع داري؟! فقال: **«ومن دخل المسجد فهو آمن»** فقال: ومن يسع المسجد؟! فقال: **«من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن؟! أغلق بابه فهو آمن»**، ثم وقف رسول الله ﷺ على باب المسجد، وقال: **«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»** ثم قال: **«يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟»** فقالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: **«اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»** فأعتقهم[١]، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ومن ذلك كان علي عليه السلام يقول لمعاوية: أنى يستوى المولى والمعتق يعني أعتقناكم حين مكننا الله من رقابكم ولم يقل: اذهبوا فأنتم معتقون، بل قال: الطلقاء؛ لأن المعتق يجوز أن يرد إلى الرق، والمطلقة يجوز أن تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء، والمطلقة تجلس في البيت للعدة، وهم أُمروا

---

(١) **ضعيف**: أورده الألباني في (الدفاع عن الحديث النبوي) (١/ ٣٢) وقال: هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت، وهو عند ابن هشام معضل، وقد ضعفه الحافظ العراقي. وكذا أورده في السلسلة الضعيفة (٣/ ٣٠٧) حديث رقم (١١٦٣) وقال: رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣١، ٣٢) وعنه الطبري في التاريخ (٣/ ١٢٠) قال: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة... وذكره ثم قال: وهذا إسناد ضعيف مرسل؛ لأن شيخ ابن إسحاق فيه لم يُسمَّ فهو مجهول، ثم هو ليس صحابيًا لأن ابن إسحاق لم يدرك أحدًا من الصحابة، بل هو يروي عن التابعين وأقرانه، فهو مرسل أو معضل. اهـ.

بالجلوس بمكة كالنسوان، ثم إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجًا، روي أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات: أربعة صلاة الضحى، وأربعة أخرى شكرًا لله نافلة، فهذه هي قصة فتح مكة.

والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة، ومما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقرونًا بالنصر، وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر، والفتح دون النصر كإجلاء بني النضير، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم. **القول الثاني:** أن المراد فتح خيبر، وكان ذلك على يد علي عليه السلام، والقصة مشهورة، روي أنه استصحب خالد بن الوليد، وكان يساميه في الشجاعة، فلما نصب السلم قال لخالد: أتتقدم؟ قال: لا. فلما تقدم علي عليه السلام سأله: كم صعدت؟ فقال: (لا أدري) لشدة الخوف، وروي أنه قال لعلي عليه السلام، ألا تصارعني؟ فقال: ألست صرعتك؟ فقال: نعم لكن ذاك قبل إسلامي. ولعل عليًّا عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الإسلام أنه رجل يمتنع عنه علي، أو كان علي يقول: صرعتك حين كنت كافرًا، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعك. **القول الثالث:** أنه فتح الطائف وقصته طويلة. **والقول الرابع:** المراد النصر على الكفار، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق، وهو قول أبي مسلم. **والقول الخامس:** أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم، ومنه قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] لكن حصول العلم لا بد وأن يكون مسبوقًا بانشراح الصدر وصفاء القلب، وذلك هو المراد من قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ويمكن أن يكون المراد بنصر الله إعانته على الطاعة والخيرات، والفتح هو انتفاع عالم المعقولات والروحانيات.

المسألة الثانية: إذا حملنا الفتح على فتح مكة، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان: **أحدهما:** أن فتح مكة كان سنة ثمان، ونزلت هذه السورة سنة عشر، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يومًا، ولذلك سميت سورة التوديع. **والقول الثاني:** أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة، وأن يفتحها عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ يقتضي الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء وإذا وقع، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وُجد مخبره بعد حين مطابقًا له، والإخبار عن الغيب معجز. **فإن قيل:** لم ذكر النصر مضافًا إلى الله تعالى، وذكر الفتح بالألف واللام؟ **الجواب:** الألف واللام للمعهود السابق، فينصرف إلى فتح مكة.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: (رَأَيْتَ) يحتمل أن يكون معناه أبصرت، وأن يكون معناه علمت، فإن كان

معناه أبصرت كان (يدخلون) في محل النصب على الحال، والتقدير: ورأيت الناس حال دخولهم في دين الله أفواجًا. وإن كان معناه علمت كان ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ مفعولاً ثانيًا لعلمت، والتقدير: علمت الناس داخلين في دين الله.

المسألة الثانية: ظاهر لفظ الناس للعموم، فيقتضي أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا في الوجود، مع أن الأمر ما كان كذلك. **الجواب من وجهين: الأول**: أن المقصود من الإنسانية والعقل، إنما هو الدين والطاعة، على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فمن أعرض عن الدين الحق وبقي على الكفر، فكأنه ليس بإنسان، وهذا المعنى هو المراد من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] وسئل الحسن بن علي عليه السلام: من الناس؟ فقال: نحن الناس، وأشياعنا أشباه الناس، وأعداؤنا النسناس. فقبله علي عليه السلام بين عينيه، وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته!! **فإن قيل**: إنهم إنما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم؟ **قلنا**: هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية طول عمره، فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره يقبل إيمانه، ويمدحه هذا المدح العظيم، ويروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان: أتيت وإن كنت قد أبيت. ويروى أنه عليه السلام قال: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الضَّالِّ الْوَاجِدِ، وَالظَّمْآنِ الْوَارِدِ» والمعنى كأن الرب تعالى يقول: ربيته سبعين سنة، فإن مات على كفره فلا بد وأن أبعثه إلى النار، فحينئذٍ يضيع إحساني إليه في سبعين سنة، فكلما كانت مدة الكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولاً. **الوجه الثاني في الجواب**: روي أن المراد بالناس أهل اليمن، قال أبو هريرة: لما نزلت هذه السورة، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ، قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْفِقْهُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ» وَقَالَ: «أَجِدُ نَفَسَ رَبِّكُمْ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ» (١).

المسألة الثالثة: قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمون: إن إيمان المقلد صحيح. واحتجوا بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على محمد عليه السلام، ولو لم يكن إيمانهم صحيحًا لما ذكره في هذا المعرض، ثم إنا نعلم قطعًا أنهم ما كانوا عالمين حدوث الأجساد بالدليل ولا إثبات كونه تعالى منزهًا عن الجسمية والمكان والحيز، ولا إثبات كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، ولا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد ﷺ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح،

(١) ضعيف: الطبراني في (مسند الشاميين) (٢/ ١٤٩) حديث رقم (١٠٨٣) من طريق علي بن عياش الحمصي حدثنا حريز بن عثمان عن شبيب أبي روح عن أبي هريرة... به. وأورده القاري في (المطبوع) (١/ ٦٩) حديث رقم (٧٠) وقال: قال العراقي: لم أجد له أصلاً. وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٠٩٧) وقال: شبيب لم تُعرف له عدالة.

ولا يقال: إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل، لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلاً كونه عالمًا بهذه التفاصيل؛ لأنا نقول: إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان، فإن الدليل إذا كان مثلاً مركبًا من عشر مقدمات، فمن علم تسعة منها، وكان في المقدمة العاشرة مقلدًا كان في النتيجة مقلدًا لا محالة لأن فرع التقليد أَوْلى أن يكون تقليدًا، وإن كان عالمًا بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره أعرف منه بذلك الدليل؛ لأن تلك الزيادة إن كانت جزًّا معتبرًا في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل، فإنه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية، وإن لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمرًا منفصلاً عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلاً على ذلك المدلول، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلاً لا يقبل الزيادة والنقصان، فأما أن يقال: إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة، وذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك. فحينئذٍ ثبت أنهم كانوا مقلدين، ومما يؤكد ما ذكرنا ما روي عن الحسن أنه قال: لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وكل من أرادهم بسوء. ثم أخذوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال، هذا ما رواه الحسن، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد، فعلمنا أنهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين.

المسألة الرابعة: دين الله هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ولقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وللدين أسماء أخرى، منها الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] ومنها الصراط، قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣] ومنها كلمة الله، ومنها النور: ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨] ومنها الهدى لقوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٨] ومنها العروة: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] ومنها الحبل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومنها صبغة الله، وفطرة الله، وإنما قال: ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: في دين الرب، ولا سائر الأسماء لوجهين: **الأول:** أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات، فكأنه يقول: هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول. **والثاني:** لو قال: دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك وأحسن إليك، وحينئذٍ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع، فلا يكون الإخلاص حاصلاً، فكأنه يقول: أخلِص الخدمة بمجرد أني إله لا لنفع يعود إليك.

المسألة الخامسة: الفوج: الجماعة الكثيرة، كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما

يبكيك؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا» نعوذ بالله من السلب بعد العطاء.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار.

ولهذا الترتيب فوائد:

الفائدة الأولى: اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمدًا كان على الحق مما يثقل على القلب ويقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلمَ لا تنصرني ولمَ سلطت هؤلاء الكفرة عليَّ؟! فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أُمر بالتسبيح، أما على قولنا فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئًا، بل كل ما تفعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية، فلك أن تفعل ما تشاء كما تشاء، ففائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئًا، وأما على قول المعتزلة: ما فائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغي فحينئذٍ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر، ثم حينئذٍ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه. **الوجه الثاني:** أن للسائرين طريقين، فمنهم من قال: (ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده) ومنهم من قال: (ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله) ولا شك أن هذا الطريق أكمل، أما بحسب المعالم الحكمية فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجَلّ مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود، فالاستغراق في الأول يكون أشرف لا محالة، ولأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل، وإذا ثبت هذا فنقول: ٱلآية دالة على هذه الطريقة التي هي أشرف الطريقين، وذلك لأنه قَدَّم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس، فذكر أولاً من الخالق أمرين: **أحدهما التسبيح والثاني:** التحميد، ثم ذكر في المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق.

واعلم أن صفات الحق محصورة في السلب والإيجاب والنفي والإثبات، والسلوب مقدمة على الإيجابات، فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التي لواجب الوجود وهي صفات الجلال، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له، وهي صفات الإكرام، ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس، وفيه رؤية جود الحق، وفيه طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس، ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله

يبقى محرومًا عن مطالعة حضرة جلال الله، فلهذه الدقيقة أخّر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد. **الوجه الثالث:** أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكية، وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل: آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية، ثم الملائكة ذكروا في أنفسهم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فقوله ههنا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى التشبه بالملائكة في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وقوله ههنا: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لأنهم فسروا قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك، والاستغفار يرجع معناه أيضًا إلى تقديس النفس، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدي ورأوا ذلك من أنفسهم، وأما أنت فسبح بحمدي واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك، بل يجب أن تراها من توفيقي وإحساني، ويحتمل أن يقال: الملائكة كما قالوا في حق أنفسهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال الله في حقهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧] فأنت يا محمد استغفر للذين جاؤوا أفواجًا، كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] **الوجه الرابع:** التسبيح هو التطهير، فيحتمل أن يكون المراد طهِّر الكعبة من الأصنام وكسِّرها. ثم قال: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أن ينبغي أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك وإعانته وتقويته، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغي أن ترى نفسك آتيًا بالطاعة اللائقة به، بل يجب أن ترى نفسك في هذه الحالة مقصرة، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك في طاعته. **والوجه الخامس:** كأنه تعالى يقول: يا محمد إما أن تكون معصومًا أو لم تكن معصومًا: فإن كنت معصومًا فاشتغل بالتسبيح والتحميد، وإن لم تكن معصومًا فاشتغل بالاستغفار. فتكون الآية كالتنبيه على أنه لا فراغ عن التكليف في العبودية كما قال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

المسألة الثانية: في المراد من التسبيح وجهان: **الأول:** أنه ذكر الله بالتنزه، سئل رسول الله ﷺ عنه فقال: «**تنزيه الله عن كل سوء**» وأصله من سبح، فإن السابح يسبح في الماء كالطير في الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه، والتشديد للتبعيد لأنك تسبحه أي تبعده عما لا يجوز عليه، وإنما حسن استعماله في تنزيه الله عما لا يجوز عليه من صفات الذات والفعل نفيًا وإثباتًا لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة، فكذا الحق سبحانه لا يقبل ما لا ينبغي ألبتة، فاللفظ يفيد التنزيه في الذات والصفات والأفعال.

والقول الثاني: أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد في القرآن بمعنى الصلاة، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ [طه: ١٣٠] والذي يؤكده أن هذه السورة من آخر ما نزل، وكان عليه السلام في آخر مرضه يقول: «الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» جعل يلجلجها في صدره وما يقبض بها لسانه، ثم قال بعضهم: عنى به صلاة الشكر، صلاها يوم الفتح ثمان ركعات. وقال آخرون: هي صلاة

الضحى. وقال آخرون: صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة الضحى، وتسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لا تنفك عنه، وفيه تنبيه على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص في الأقوال والأفعال.

واحتج أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة في ذلك، روت عائشة: كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة يُكثر أن يقول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»(١)، وقالت أيضًا: كان الرسول يقول كثيرًا في ركوعه: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» وعنها أيضًا. كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «**سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ تُكْثِرُ مِنْ قولِكَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ قَالَ: «**إِنِّي أُمِرْتُ بِهَا**»، وقرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وعن ابن مسعود: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ**» وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢).

المسألة الثالية: الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافيًا في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح، ولِمَ لا يكون كذلك وقوله: «**الصَّوْمُ لِي**»(٣) من أعظم الفضائل للصوم فإنه أضافه إلى ذاته، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساويًا للصوم في هذا التشريف: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وكيف لا يكون كذلك والثناء عليه مما مدحه معلوم عقلاً وشرعًا، أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جُعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح والتكبير. **فإن قيل**: عدم وجوب التسبيحات يقتضي أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة. **قلنا**: الجواب عنه من وجوه: **أحدها**: أن سائر أفعال الصلاة مما لا يميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب، أما التسبيح والتهليل فالعقل داعٍ إليه والروح عاشق عليه، فاكتفى بالحب الطبيعي ولذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، **وثانيها**: أن قوله:

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (السهو) باب (نوع آخر من الذكر بعد التسليم) (٢/ ١٧٢) حديث رقم (١٣٤٣) والنسائي أيضًا في كتاب (عمل اليوم والليلة) (٣٠٩) حديث رقم (٤٠٠) من طريق أبي بكر بن إسحاق... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٧٧) كلاهما (أبو بكر بن إسحاق، أحمد بن حنبل) قالا: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، وأورده ابن حجر العسقلاني في ختام كتابه العظيم فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٣١/ ٥٥٦) بإسناده ولفظه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هذا جزء من حديث قدسي من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل: (الصوم لي وأنا: اجزي به...) الحديث وهو متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾[الفتح:١٥] (٦/ ٢٧٢٣) حديث رقم (٧٠٥٤) ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٨٠٧/ ١١٥١) كلاهما من طريق أبي صالح عن أبي هريرة... به.

﴿فَسَبِّحْ﴾ أمر والأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء، ومن قال: (الأمر المطلق للندب) قال: إنه ههنا للوجوب بقرينة أنه عطف عليه الاستغفار، والاستغفار واجب، ومن حق العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه. **وثالثها:** أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهارًا لمزيد تعظيمها، فترك الإيجاب خوفًا من هذا المحذور.

المسألة الرابعة: أما الحمد فقد تقدم تفسيره، وأما تفسير قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** قال صاحب (الكشاف): أي قل: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» متعجبًا مما أراك من عجيب إنعامه، أي اجمع بينهما، تقول: (شربت الماء باللبن) إذا جمعت بينهما خلطًا وشربًا. **وثانيها:** أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل في الحمد؛ لأن الثناء عليه والشكر له لا بد وأن يتضمن تنزيهه عن النقائص؛ لأنه لا يكون مستحقًّا للثناء إلا إذا كان منزهًا عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال: الحمد لله الذي نصر عبده، ولم يفتتح كلامه بالتسبيح، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه سبحه بواسطة أن تحمده، أي سبحه بهذا الطريق. **وثالثها:** أن يكون حالاً، ومعناه (سبح حامدًا) كقولك: (اخرج بسلاحك) أي متسلحًا. **ورابعها:** يجوز أن يكون معناه (سبِّح مقدرًا أن تحمد بعد التسبيح) كأنه يقول: لا يتأتى لك الجمع لفظًا فاجمعهما نية، كما أنك يوم النحر تنوي الصلاة مقدرًا أن تنحر بعدها، فيجتمع لك الثوابان في تلك الساعة، كذا ههنا. **وخامسها:** أن تكون هذه الباء هي التي في قولك: (فعلت هذا بفضل الله) أي سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه لا بحمد غيره، ونظيره في حديث الإفك قول عائشة: (بِحَمْدِ اللَّهِ لاَ بِحَمْدِكَ) والمعنى: فسبحه بحمده، فإنه الذي هداك دون غيره، ولذلك روي أنه عليه السلام كان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ»[1]. **وسادسها:** روى السدي: (بحمد ربك)، أي بأمر ربك. **وسابعها:** أن تكون الباء صلة زائدة، ويكون التقدير: سبح حمد ربك، ثم فيه احتمالات: **أحدها:** اختر له أطهر المحامد وأزكاها. **والثاني:** طهِّر محامد ربك عن الرياء والسمعة والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة. **والثالث:** طهِّر محامد ربك عن أن تقول: (جئت بها كما يليق به) وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] **وثامنها:** أي ائت بالتسبيح بدلاً عن الحمد الواجب عليك، وذلك لأن الحمد إنما يجب في مقابلة النعم، ونعم الله علينا غير متناهية، فحمدها لا يكون في وسع البشر، ولذلك قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فكأنه تعالى يقول: أنت عاجز عن الحمد، فأت بالتسبيح والتنزيه بدلاً عن الحمد. **وتاسعها:** فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد أمرأن لا يجوز تأخير أحدهما عن الثاني، ولا يتصور أيضًا أن يؤتى بهما معًا، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب، وجب أن يقول: اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع، كذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ليقعا معًا، فيصير حامدًا مسبحًا في وقت واحد معًا. **وعاشرها:** أن يكون المراد سبح قلبك، أي طهر قلبك

(١) لم أجده.

بواسطة مطالعة حمد ربك، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وجهدك، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ إشارة إلى نفي ما سوى الله تعالى، وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وجوه: **أحدها**: لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه، ويسأل الله أن ينصره، فلما سمع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ استبشر، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله وأمَره بأن يستغفر للداخلين، لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي ﷺ بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام؛ لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول: إن قبول التوبة حرفته، فكل من طلب منه التوبة أعطاه، كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التي عنده، فكل من طلب منه شيئًا من تلك الأمتعة باعه منه، سواء كان المشتري عدوًّا أو وليًا، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة، سواء كان التائب مكيًّا أو مدنيًّا، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له: (أخ كريم وابن أخ كريم) قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] أي أمرني أن أستغفر لكم فلا يجوز أن يردني. **وثالثها**: أن قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك: فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا: فمن قال: (صدرت المعصية) عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهًا: **أحدها**: أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة. **وثانيها**: لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار. **وثالثها**: لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابرًا للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً. وأما من قال: (ما صدرت المعصية عنه) فذكر في هذا الاستغفار وجوهًا: **أحدها**: أن استغفار النبي جارٍ مجرى التسبيح، وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار. **وثانيها**: تعبَّده الله بذلك ليقتدي به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في عبادته، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغني عن الاستغفار، فكيف من دونه؟! **وثالثها**: أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل. **ورابعها**: أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة، فليستغفر الله لأجل ذلك. **وخامسها**: الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية، ثم تجاوز عنه، فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصرًا فيستغفر الله عنه، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية، لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية. أما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد (واستغفره لذنب أمتك) فهو أيضًا ظاهر؛ لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم، وهكذا إذا قلنا: المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته.

المسألة السادسة: في الآية إشكال، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح؛ لأن الحمد يكون بسبب الإنعام، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار، ثم بعده يذكر الحمد، ثم بعده يذكر التسبيح، فما السبب في أن صار مذكورًا على العكس من هذا الترتيب؟ **وجوابه من وجوه: أولها**: لعله ابتدأ بالأشرف، فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس، تنبيهًا على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق. **وثانيها**: فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله وعزته صار عين الذنب، فوجب الاستغفار منه. **وثالثها**: التسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق (الله)، والأول كالصلاة، والثاني كالزكاة، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا ههنا.

المسألة السابعة: الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار، وذلك من وجوه: **أحدها**: أنه عليه الصلاة والسلام كان مأمورًا بإبلاغ السورة إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواترًا، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض. **وثانيها**: أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة. **وثالثها**: أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر، فأمَر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائمًا، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره، ثم قال: (واستغفره) حين نُعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك.

المسألة الثامنة: في الآية سؤالات: **أحدها**: وهو أنه قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل. **وثانيها**: هلا قال: (غفارًا) كما قاله في سورة نوح؟ **وثالثها**: أنه قال: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فلمَ لم يقل: (بحمد الله) بل قال: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾.

والجواب: عن الأول من وجوه: **أحدها**: أن هذا أبلغ، كأنه يقول: ألست أثنيت عليكم بأنكم خير أمة أُخرجت للناس، ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة، وفلق البحر ونتق الجبل، ونزول المن والسلوى -عصوا ربهم وأتوا بالقبائح، فلما تابوا قبلت توبتهم، فإذا كنت قابلاً للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم؟ **وثانيها**: منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان، فكيف في كرم الرحمن؟ **وثالثها**: كنت توابًا قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار؟ **ورابعها**: كأنه إشارة إلى تخفيف جناياتهم، أي لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتي، والجناية؟ مصيبة للجاني، والمصيبة إذا عمدت خفت. **وخامسها**: كأنه نظير ما يقال:

لَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى ... كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِي[1]

(١) يُنسب هذا البيت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والجواب عن السؤال الثاني من وجوه: أحدها: لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار، ويقال: (تواب) إذا كان آتيًا بالتوبة، فيقول تعالى: كنتَ لي سميًا من أول الأمر أنت مؤمن وأنا مؤمن، وإن كان المعنى مختلفًا فتب حتى تصير سميًا لي آخر الأمر، فأنت تواب، وأنا تواب ثم إن التواب في حق الله هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيرًا، فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه كثيرًا. **وثانيها:** إنما قيل: توابًا لأن القائل قد يقول: (أستغفر الله) وليس بتائب، ومنه قوله: «**الْمُسْتَغْفِرُ بِلِسَانِهِ الْمُصِرُّ بِقَلْبِهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ**» **إن قيل:** فقد يقول: (أتوب) وليس بتائب. **قلنا:** فإذًا يكون كاذبًا؛ لأن التوبة اسم للرجوع والندم، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذبًا فيه، فصار تقدير الكلام: (واستغفره بالتوبة) وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمال، وروي أنه لم يجلس مجلسًا إلا ختمه بالاستغفار.

والجواب عن السؤال الثالث: أنه تعالى راعى العدل، فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين أحدهما الرب والثاني التواب، ولما كانت التربية تحصل أولاً والتوابية آخرًا، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخرًا.

المسألة التاسعة: الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ روي أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» فقال: نعيت إليك نفسك! فقال: «**الأمر كما تقول**»[(١)]، وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا الْغُلَامُ عِلْمًا كَثِيرًا**»[(٢)] روي أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر، فقال عبد الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله؟! فقال: لأنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وكأنه ما سألهم إلا من أجلي، فقال بعضهم: أَمَر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه. فقلت: ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم. ثم قال: كيف تلومونني عليه بعدما ترون؟![(٣)]، وروي أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ لِقَائِهِ وَالْآخِرَةِ فَاخْتَارَ لِقَاءَ اللَّهِ**».

فقال السائل: وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** قال بعضهم: إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير. **وثانيها:** أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجًا، دل ذلك على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال، كما قيل:

إِذَا تَمَّ شَيءٌ دَنَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّْ[(٤)]

---

(١) أرده الزيلعي في (تخريجه للكشاف) (٤/ ٣١٩) وقال: ذكره الثعلبي من قول مقاتل.

(٢)، (٣) انظر سابقه. (٤) تقدم.

وثالثها: أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقًا، واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز. **ورابعها:** قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول: قرب الوقت ودنا الرحيل، فتأهب للأمر. ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة. **وخامسها:** كأنه قيل له: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح والاستيلاء، والله تعالى وعدك بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقِل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية.

المسألة العاشرة: ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة، وأما الذين قالوا: إنها نزلت بعد فتح مكة، فذكر الماوردي أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يومًا مستديمًا للتسبيح والاستغفار. وقال مقاتل: عاش بعدها حولاً ونزل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعده ثمانين يومًا، ثم نزل آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يومًا، ثم نزل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحد عشر يومًا، وفي رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام، والله أعلم كيف كان ذلك.

تفسير سورة «النصر»

وهي مدنية بإجماع. وتُسمَّى سورة «التوديع»[٣]. وهي ثلاثُ آيات. وهي آخرُ سورة نزلت جميعاً؛ قاله ابن عباس في «صحيح» مسلم[٤].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾

النصر: العَوْن؛ مأخوذٌ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرضَ: إذا أعان على نَباتها، ومَنَعَ[٥] من قَحْطِها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهرُ الحرامُ فودِّعي ... بلادَ تميمٍ وانْصُري أرضَ عامِرِ[٦]

ويُروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزي ... بلادَ تميم وانصُري أرضَ عامِرِ[٧]

يقال: نصره على عدوِّه ينصره نصراً، أي: أَعانه. والاسم النُّصْرة. واستنصره على عدوِّه: أي: سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضُهم بعضاً.

---

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٥٥ .

(٤) الحديث (٣٠٢٤).

(٥) لفظ: ومنع، ليس في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ .

(٦) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٣٣ ، وسلف ٢/ ٨٠ .

(٧) هذه رواية الجوهري في الصحاح (نصر) والكلام منه.

ثم قيل: المراد بهذا النصر نصرُ الرسول ﷺ على قريش؛ قاله[١] الطبريّ[٢]. وقيل: نَصْره على مَن قاتله من الكفار؛ فإنَّ عاقبةَ النصر كانت له. وأما الفتحُ فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: هو فتحُ المدائن والقصور. وقيل: فتحُ سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم.

و«إذا» بمعنى قد، أي: قد جاء نصرُ الله؛ لأن نزولَها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العرب وغيرهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعاتٍ، فوجاً بعد فوج. وذلك لما فُتحت مكة قالت العرب: أما إذا ظَفِرَ محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[٣]. فكانوا يُسْلِمون أفْواجاً؛ أمّةً أمّةً[٤]. قال الضحاك: والأُمّة: أربعون رجلاً[٥]. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبع مئة إنسان مؤمنين طائعين[٦]. بعضهم يُؤَذِّنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون؛ فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك، وبكى عمر وعباس[٧].

وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قرأ: «﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وجاء أهلُ اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهُمْ، لَيِّنَةً طِباعهم، سَخِية قُلوبهم، عظيمةً خشيتُهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»[٨].

---

(١) لفظ: قاله، ليس في (م).

(٢) في تفسيره ٢٤/ ٧٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، وما بعده منه.

(٣) اليد: القوة والقدرة والسلطان. القاموس (يدي).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٤١ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤١ .

(٧) في (د) و(م): وابن عباس. وسيأتي خبرهما في تفسير الآية التالية.

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣) بنحوه.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أتاكم أهلُ اليمن، هم أضعفُ قلوباً، وأرقُّ أفئدةً. الفِقهُ يَمَانٍ، والحِكْمة يَمَانِية»[(١)]. ورُوي أنه ﷺ قال: «إني لأجدُ نَفَس ربِّكم مِن قِبلِ اليَمَنْ»[(٢)] وفيه تأويلان: أحدهما: أنه الفَرَج؛ لِتتابع إسلامهم أفواجاً. والثاني: معناه: أن الله سبحانه وتعالى نَفَّس الكرب عن نبيِّه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الناسَ دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً» ذكره الماورديّ[(٣)]، ولفظ الثعلبيّ: وقال أبو عمار: حدّثني جارٌ لجابر، قال: سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم، فجعل يبكي ويقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الناسَ دخَلُوا في دين الله أفواجاً، وسَيَخْرُجُونَ من دينِ اللهِ أفْواجًا»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ أي: إذا صَليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سَبِّح: صَلِّ؛ عن ابن عباس[(٥)]. «بِحَمْدِ ربك» أي: حامداً له على ما آتاك من الظَّفَر والفتح. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفران. وقيل: «فسبِّح» المراد به: التنزيهُ؛ أي: نَزِّهه عما لا يجوز عليه مع شُكرك له. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفْران مع مُداومةِ الذِّكر. والأوّل أظهر.

روى الأئمة ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما صلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه سورةُ «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ» إلا يقول:

---

(١) صحيح مسلم (٥٢): (٨٤)، وأخرجه أحمد (٧٢٠٢)، والبخاري (٤٣٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأَجِدُ نَفَسَ ربكم من قبل اليمن..».

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠ ، وتخريج حديث جابر ﷺ في التعليق التالي.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٩٦)، وإسناده ضعيف لجهالة جار جابر ﷺ.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦١ .

«سبحانَكَ رَبَّنا وَبِحَمْدِك، اللهمَّ اغفِرْ لي»[١].

وعنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «سُبحانكَ اللهمَّ رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغفِرْ لِي»، يتأوّل القرآن[٢].

وفي غير الصحيح: وقالت أُمُّ سَلَمة: كان النبيّ ﷺ آخرَ أمرِه لا يقوم ولا يقعد، ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: «سبحان اللهِ وبحمِدِه، أَسْتغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه، قال: «فإنّي أُمِرت بها»، ثم قرأ: «إِذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ» إلى آخرها[٣].

وقال أبو هريرة: اجتهدَ النبيّ ﷺ بعد نزولها، حتى تَوَرَّمَت قدماه. ونَحَل جسمه، وقلَّ تَبَسُّمه، وكَثُرَ بكاؤه. وقال عِكرمة: لم يكن النبيّ ﷺ قَطُّ أشدَّ اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت قرأها النبيّ ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد ابن أبي وقاص، ففرِحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبْكِيكَ يا عَمّ؟» قال: نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك. قال: «إنه لكما تقول»؛ فعاش بعدها ستين يوماً، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً[٤].

وقيل: نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق، في حجَّة الوداع[٥]، فبكى عُمر والعباس، فقيل لهما: إنَّ هذا يومُ فرح، فقالا: بل فيه نَعْيُ النبيِّ ﷺ. فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقتما، نُعِيت إليّ نفسي».

وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال: كان عمرُ بن الخطاب يَأْذَن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فَوجَدَ بعضُهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مِثْله! فقال لهم عمر: إنه مَنْ قد علمتم. قال: فأَذِنَ لهم ذاتَ يوم، وأَذِنَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٥٩٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١١ بنحوه، وأورده ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: غريب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٩٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٦١ - ٣٦٢ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٩ : ذكره الثعلبي عن مقاتل، وسنده إليه دون الكتاب.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٣ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لي معهم، فسألهم عن هذه السورة «إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح» فقالوا: أمر الله جلّ وعزّ نبيَّه ﷺ إذا فُتِحَ عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أَخبر اللهُ نبيَّه ﷺ حضورَ أجله، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فذلك علامةُ موتك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾. فقال عمر ﷺ: تلومونني عليه؟! وفي البخاريّ: فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول[1]. ورواه الترمذيّ، قال: كان عمرُ يسألني مع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف: أتسألُه ولنا بنون مِثْلُه؟ فقال له عمر: إنه مِنْ حيثُ نعلم. فسأله عن هذه الآية: «إذا جاء نصر اللهِ والفتح». فقلت: إنما هو أجلُ رسولِ الله ﷺ، أَعْلَمَه إيَّاه، وقرأ السورةَ إلى آخرها. فقال له عمر: والله، ما أعلمُ منها إلا ما تعلم. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[2].

فإن قيل: فماذا يغفر للنبيِّ ﷺ حتى يُؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: «رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتِي وجَهْلِي، وإِسْرافي في أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلمُ به مني. اللهم اغفِرْ لي خَطَئي وعَمْدِي، وجَهْلِي وهَزْلي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما أَعلَنْت وما أَسْرَرْت، أنت المُقدِّم وأنت المُؤَخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير»[3]. فكان ﷺ يستقصر نَفْسَه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قُصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوباً[4].

ويَحتمِلُ أن يكون بمعنى: كُنْ مُتعلِّقًا به، سائلاً راغباً، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّدٌ، يجب إتيانُه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيهٌ لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٧٠)، وأخرجه أحمد (٣١٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٦٢)، وهو عند البخاري (٣٦٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٤٨٩) و(١٩٧٣٨)، والبخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٠ .

الاستغفار. وقيل: «واستغفره» أي: استغْفِر لأُمتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: أي: على المسبحين والمستغفرين، يتوبُ عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتَهم. وإذا كان عليه الصلاة والسلام وهو معصومٌ يؤمر بالاستغفار، فما الظنُّ بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثر من قول: «سبحان الله وَبِحَمْدِهِ، أَستغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ». قالت: فقلت: يا رسولَ الله، أراك تُكثِرُ من قول: «سبحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَستغفر اللهَ وأتوبُ إليه؟» فقال: «خَبَّرني ربي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأيتها أكثرتُ من قول سُبْحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾»[1].

وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوَداع، ثم نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلالة [النساء: ١٧٦]، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزلت ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزلت ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً[2]. وقال مقاتل: سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[3]، والحمد لله.

---

(١) صحيح مسلم (٤٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٥).

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ دون ذكر آية الكلالة، ولم ينسبه وقول مقاتل الذي بعده منه.

(٣) ٤/ ٤٢١ .

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح[١]

وهى مدنية .

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال النسائى : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر ، عن أبى العُمَيس (ح) وأخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العُمَيس ، عن عبد المجيد بن سهيل[٢]، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لى ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت[٣] ؟ قلت : نعم ، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . قال : صدقت[٤] .

وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى ، من حديث موسى بن عبيدة الرّبذى[٥] ، عن صدقة بن يَسَار ، عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فَرحلت ، ثم قام فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة[٦] .

وقال الحافظ البيهقى : أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا الأسفاطى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ فاطمة[٧] وقال : «إنه قد نُعيت إلىّ نفسى » ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نُعيت إليه نفسُه فبكيت ، ثم قال : «اصبرى فإنك أول أهلى لحاقاً بى » فضحكت[٨].

وقد رواه النسائى ــ كما سيأتى ـ بدون ذكر فاطمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ .

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عَوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَد فى نفسه ، فقال:

---

(١) فى م : « تفسير سورة النصر » . (٢) فى أ : « سهل » . (٣) فى م : « نزلت من القرآن » .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٣) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٣٠٢٤) من طريق جعفر بن عون به.

(٥) فى أ : « الزبيرى » .

(٦) سنن البيهقى الكبرى (٥/ ١٥٢) ، وموسى بن عبيدة ضعيف .

(٧) فى أ : « فاطمة ابنته » .

(٨) دلائل النبوة للبيهقى (٧/ ١٦٧) .

لم يَدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن علمتم [١] . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رُؤيتُ أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون فى قول الله ، عز وجل : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخارى [٢] .

وروى ابن جرير ، عن محمد بن حُمَيد ، عن مِهْران ، عن الثورى ، عن عاصم ، عن أبى رَزِين ، عن ابن عباس ، فذكر مثل هذه القصة ، أو نحوها [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فُضَيل ، حدثنا عطاء ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما نَزَلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « نُعيَت إلىّ نفسى » . . بأنه مقبوض فى تلك السنة . تفرد به أحمد [٤] .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، مثله . وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وغير واحد : إنها أجل رسول الله ﷺ نُعى إليه .

وقال ابن جرير : حدثنى إسماعيل بن موسى ، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفى[٥] ، عن مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن أبى حازم ، عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ فى المدينة إذ قال: « الله أكبر ، الله أكبر ! جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ». قيل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » [٦] .

ثم رواه عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، عن عكرمة ، مرسلا .

وقال الطبرانى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو كامل الجَحْدَرىّ ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن هلال بن خبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، حتى ختم السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت ، قال : فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً فى أمر الآخرة . وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتحُ ونصر الله ، وجاء أهل اليَمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يَمان ، والفقه يمان » [٧] .

---

(١) فى م : « ممن قد علمتم » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٠) .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٥) .
(٤) المسند (١/٢١٧) .
(٥) فى أ : « الثقفى » .
(٦) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٥) .
(٧) المعجم الكبير (١١/٣٢٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رَزين ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبى ﷺ أنه قد نُعيت إليه نفسه ، فقيل : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، السورة كلها (١) .

حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رَزين : أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال : لما نزلت نُعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عُمَر الوكيعى ، حدثنا أبى ، حدثنا جَعفر بن عون ، عن أبى العُمَيس ، عن أبى بكر بن أبى الجهم ، عن عُبَيد الله بن عَبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى البَختُرى الطائى (٤) ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابى حيز» . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مَرْوان : كذبت ــ وعنده رافع بن خَديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير ــ فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالا : صدق (٥) .

تفرد به أحمد ، وهذا الذى أنكره مروان على أبى سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، ولكن إذا استنفرتم فانفروا » . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما (٦) .

فالذى فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، رضى الله عنهم أجمعين ، مِنْ أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره ــ معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبى ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ،فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم يَنْو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات .

---

(١) المسند (١/٣٤٤) .

(٢) المسند (١/٣٥٦) .

(٣) المعجم الكبير (١٠/٣٦٩) .

(٤) فى أ : « عن أبى البخترى عن الطائى » .

(٥) المسند (٣/٢٢) .

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٤٩،١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) .

وهكذا فعل سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين ، كما ورد فى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عباس وعمر ، رضى الله عنهما ، من أن هذه السورة نُعِى فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه [1] الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة ـ وهى قريتك التى أخرجتك ـ ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ .

قال النسائى : أخبرنا عمرو بن منصور ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عوانة ، عن هلال ابن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، إلى آخر السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسُه حين أنزلت ، فأخذ فى أشدّ ما كان اجتهاداً فى أمر الآخرة ، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتح ، وجاء نصر الله ، وجاء أهل اليمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، ليِّنة قلوبهم ، الإيمان يَمانٍ، والحكمة يمانية ، والفقه يمان » [2] .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جَرير ، عن منصور ، عن أبى الضحَى ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن .

وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى ، من حديث منصور ، به [3] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان توابا ، فقد رأيتها : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ » .

ورواه مسلم من طريق داود ـ وهو ابن أبى هند ـ به [4] .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص ، حدثنا عاصم ، عن الشعبى ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجىء ، إلا قال: « سبحان الله وبحمده » . فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب ولا تجىء ، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت : سبحان الله وبحمده ؟ قال : « إنى أمرت بها » ، فقال:

---

(١) فى م : « روحه » .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٨) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) وسنن أبى داود برقم (٨٧٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٨٨٩) .

(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، إلى آخر السورة [١] .

غريب ، وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه فى جزء مُفرد ، فيكتب هاهنا[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عُبَيدة ، عن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ،كان يكثر إذا قرأها ـ وركَعَ ـ أن يقول: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثا [٣] .

تفرد به أحمد . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن عمرو بن مُرّة ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق، به .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة .وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى . الحديث [٤] . وقد حَرّرنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار ، حدثنى جار لجابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله ، فسلم علىّ [٥] ، فجعلت أحدّثهُ عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكى ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً » [٦] .

[آخر تفسير سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » ولله الحمد والمنة] [٧]

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٦) .
(٢) سبق ذكر أحاديث كفارة المجلس وذكر طرقها فى آخر تفسير سورة الصافات .
(٣) المسند (١/٣٨٨) .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٣٠٢) .
(٥) فى م : « يسلم على » .
(٦) المسند (٣/٣٤٣) .
(٧) زيادة من أ .

سورة النصر

مدنيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إعانته تعالى وإظهاره إيّاك على عدوّك ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ أي: فتح مكّة، وقيل: جنس نصر الله تعالى ومطلَق الفتح،[1] فإنّ فتح مكّة لمّا كان مِفتاحَ الفتوح ومناطها كما أنّ نفسها أمّ القرى وإمامها جُعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح، وعُلِّق به أمره عليه السلام بالتسبيح والحمد.

والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء للإيذان بأنّهما متوجّهان نحوه عليه السلام، وأنهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب. رُوي أنّها نزلت قبل الفتح،[2] وعليه الأكثر. وقيل: في أيّام التشريق بمنًى في حجّة الوداع،[3] فكلمة ﴿إِذَا﴾ حينئذٍ باعتبار أنّ بعض ما في حيّزها -أعني رؤية دخول الناس... إلخ- غير منقضٍ بعد.

وكان فتح مكّة لعشر مضين مِن شهر رمضان سنة ثمان، ومع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عشرةُ آلاف مِن المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمسَ عشرةَ ليلةً، وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثمّ قال: «لا إلهَ إلّا الله وحدَه لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحدَه». ثمّ قال: «يا أهل مكّة ما تُرَون أنّي فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم،

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١٥/٤.
٢ اللباب لابن عادل، ٥٣٨/٢٠.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١٥/٤.

قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقد كان الله عزّ وعلا أمكَنَه مِن رقابهم عُنوةً، وكانوا له فيئًا، ولذلك سُمّي أهل مكّة الطلقاءَ، ثمّ بايعوه على الإسلام، ثمّ خرج إلى هَوازن.[٢]

[٣٢٤و] / ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أبصرتهم أو علِمتهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: ملّة الإسلام التي لا دينَ يضاف إليه تعالى غيرُها، والجملة على الأوّل حال مِن ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وعلى الثاني مفعول ثانٍ لـ﴿رَأَيْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال مِن فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾، أي: يدخلون فيه جماعاتٍ كثيفةً كأهل مكّة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحدًا واحدًا، واثنين اثنين.

رُوي أنّه عليه الصلاة السلام لمّا فتح مكّة أقبلت العرب بعضُها على بعض، فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرَم فلن يقاومه أحد، وقد كان الله تعالى أجارهم مِن أصحاب الفيل، وعن كلّ مَن أرادهم، فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجًا مِن غير قتال. وقُرئ: "فَتْحُ اللهِ وَالنَّصْرُ".[٣] وقُرئ: "يُدْخَلُونَ"[٤] على البناء للمفعول.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله، حامدًا له، أي: فتعجَّب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال أحد، مِن أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم، واحمَده على جميل صنعه. هذا على الرواية الأولى ظاهر، وأمّا على الثانية، فلعلّه عليه السلام أُمِر بأن يداوم على ذلك استعظامًا لنعمته، لا بإحداث التعجّب لِما ذُكر، فإنّه إنّما يُناسِب حالة الفتح؛ أو فاذكره مسبّحًا حامدًا زيادةً في عبادته والثناء عليه، لزيادة إنعامه عليك، أو فصلِّ له حامدًا على نعمه. رُوي أنّه لمّا فُتح باب الكعبة صلّى صلاة الضحى، ثماني ركعات؛[٥] أو فنزِّهه عمّا يقوله الظلَمة

---

١ بلفظ قريب في السنن الكبرى للبيهقي، ٢٠٠/٩ (١٨٢٧٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٧٤/٨.

٢ هوازن: هم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَفصة بن قيس بن عيلان، ومنها بنو غزية وبنو صعصعة، قيل: منازلهم بالسروات بين تهامة ونجد. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ١١٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

٥ بمعناه في صحيح البخاري، ٨٠/١ (٣٥٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٩٨/١ (٣٣٦).

حامدًا له على أن صدق وعدَه؛ أو فاثنِ على الله تعالى بصفات الجلال، حامدًا له على صفات الإكرام.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ هضمًا لنفسك، واستقصارًا لعملك، واستعظامًا لحقوق الله تعالى، واستدراكًا لِما فرط منك مِن تَرْك الأولى. عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنّه كان عليه السلام يُكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، استغفرك وأتوب إليك».[1] / وعنه عليه السلام: «إنّي لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرّة».[2] [٣٢٤ظ]

ورُوي أنّه لمّا قرأها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه استبشروا، وبكى العبّاس، فقال عليه السلام: «ما يبكيك يا عمّ؟» فقال: «نُعيت إليك نفسك»، قال عليه السلام: «إنّها لَكَما تقول»، فلم يُرَ عليه السلام بعد ذلك ضاحكًا مستبشرًا.[3] وقيل: إنّ ابن عبّاس هو الذي قال ذلك،[4] فقال عليه السلام: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»،[5] ولعلّ ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة، وتكامل أمر الدين، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة، ٥/٣].

ورُوي أنّها لمّا نزلت خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّ عبدًا خيّره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله تعالى»، فعلِم أبو بكر رضي الله عنه فقال: «فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا».[6] وعنه عليه السلام أنّه دعا فاطمةَ رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه، إنّه نُعيت إليّ نفسي» فبكَت، فقال:

---

[1] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٣٥١/١ (٤٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧١٠/٢٤.

[2] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦٧/٨ (٦٣٠٧)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٧٥/٤ (٢٧٠٢).

[3] بلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٨/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤. وهو بمعناه في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢٤-٧٠٩.

[4] بمعناه عن ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢٤-٧١٠.

[5] ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤.

[6] بلفظ قريب في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٢٣٩/١ (٢٩٥)؛ وصحيح البخاري، ٥٧/٥ (٣٩٠٤)؛ وسنن الترمذي، ٦٠٦/٥ (٣٦٦٠).

«لا تبكي، فإنّكِ أوّل أهلي لحوقًا بي».[١] وعن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمّى سورة التوديع.[٢] وقيل: هو أمرٌ بالاستغفار لأمّته.[٣]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ منذ خلق المكلّفين، أي: مبالغًا في قبول توبتهم، فليكن كلّ تائب مُستغفِرًا متوقِّعًا للقَبول.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النصر أعطيَ مِن الأجر كمَن شهد مع محمّد عليه السلام يوم فتح مكّة».[٤]

---

١ بمعناه في مسند أحمد، ٩/٤٤ (٢٦٤١٣)؛ وصحيح مسلم، ١٩٠٥/٤ (٢٤٥٠).

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٨/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤.

٣ ورد ذلك في حديث ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٨/٣٠ (النصر، ١/١١٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٦/٤ (النصر، ١/١١٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة النصر

وتُسمَّى سورة «إذا جاء»، وعن ابن مسعود: أنها تُسمَّى سورةَ «التوديع»؛ لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه الصلاة والسلام وتوديعه الدنيا وما فيها، وجاء في عِدَّة رواياتٍ عن ابن عباس وغيره أنه ﷺ قال حين نزلت: «نُعِيتْ إليَّ نفسي»[1].

وفي روايةٍ للبيهقي عنه: أنه لَمَّا نزلت دعا عليه الصلاة والسلام فاطمةَ رضي الله عنها وقال: «إنه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، فقيل لها، فقالت: أخبرني أنه نُعِيَتْ إليه نفسُهُ فبكيت، ثم أخبرني بأنك أولُ أهلي لحاقاً بي فضحكت[2].

وقد فَهِمَ ذلك منها عمر رضي الله عنه[3]، وكان يفعلُ عليه الصلاة والسلام بعدها فِعْلَ مُودِّعٍ.

وهي مدنيةٌ على القول الأصح في تعريف المدني، فقد أخرج الترمذيُّ في مسنده[4]، والبيهقيُّ من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار[5] وصدقة بن بشار عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هذه السورةُ نزلتْ على رسول الله ﷺ أوسطَ أيام التشريق بمنى[6] وهو في حَجَّة الوداع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ حتى ختمها،

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٣).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٦٧، وأخرجه أيضاً الدارمي (٧٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٧٠)، وفيه قصة.
(٤) كذا في الأصل و(م)، وليس للترمذي كتاب اسمه المسند، ولم نقف عليه في سننه، فنسبته للترمذي وهمٌ من المصنف رحمه الله.
(٥) في الأصل و(م): موسى بن عبيدة وعبد الله بن دينار، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٦) في (م): بمعنى، وهو تصحيف.

الخبر، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وغيرهما[١]، لكن قال الحافظ ابن رجب بعد أن أخرجه عن الأولَين: إنَّ إسناده ضعيفٌ جدًّا، وموسى بن عبيدة قال أحمد: لا تَحِلُّ الروايةُ عنه. وعليه إن صحَّ يكون نزولها قريباً جدًّا من زمان وفاته ﷺ، فإنَّ ما بين حجَّةِ الوداع وإجابته عليه الصلاة والسلام داعيَ الحقِّ ثلاثة أشهر ونيف.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر[٢] عن قتادة أنه قال: والله ما عاش ﷺ بعد نزول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا قليلاً، سنتين ثم توفِّي عليه الصلاة والسلام.

وفي «البحر»: أنَّ نزولها عند منصرفه ﷺ من خيبر[٣].

وأنت تعلم أنَّ غزوةَ خيبر كانت في سنة سبعٍ أواخرَ المحرَّم، فيكونُ ما في البين أكثرَ من سنتين.

ويدلُّ على مدنيَّتها أيضاً ما أخرجه مسلم وابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: آخرُ سورةٍ نزلتْ من القرآن جميعاً ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾[٤].

وآيها ثلاثٌ بالاتفاق، وفيها إشارةٌ إلى اضمحلال مِلَّةِ الأصنام وظهور دين الله عزَّ وجلَّ على أتمِّ وجهٍ، وهو وجهُ مناسبتها لما قبلها، ويحتمل غير ذلك، وهي على ما أخرج الترمذيُّ وغيره من حديث أنس: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ربع القرآن[٥]. ولم أظفرْ بوجه ذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّقُ به.

---

(١) مسند عبد بن حميد (٨٥٨)، وسنن البيهقي ٥/ ١٥٢، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر ٦/ ٤٠٦، وأخرجه أيضاً البزار (١١٤١ - كشف).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٠٦، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٧١٢.

(٣) البحر ١٠/ ٥٢٣.

(٤) صحيح مسلم (٣٠٢٤)، ومصنف ابن أبي شيبة ٤/ ١٠٤.

(٥) سنن الترمذي (٢٨٩٥)، وقال: حديث حسن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوِّك، وهذا معنى النصر المعدَّى بـ «على»، وفُسِّر به لأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾. وجُوِّزَ أن يُراد به المعدَّى بـ «مِنْ» ومعناه: الحفظُ، والفتحُ يتضمَّنُ النصرَ بالمعنى الأول، فحينئذٍ يكون الكلامُ مشتملاً على إفادة النصرين، والأولُ هو الظاهر.

و«إذا» منصوبٌ بـ «سبِّح»، والفاءُ غيرُ مانعةٍ على ما عليه الجمهور في مثل ذلك، وأبو حيان[1] على أنها معمولةٌ للفعل بعدها، وليست مضافةً إليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى قولٌ آخرُ.

والمراد بهذا النصر ما كان في أمر مكة من غلبته عليه الصلاة والسلام على قريش، وذكر النقاش عن ابن عباس أنَّ النصرَ هو صلحُ الحديبية، وكان في آخر سنة سِتٍّ، وأما الفتح فقد أخرج جماعةٌ عنه وعن عائشةَ أنَّ المراد به فتحُ مكة، وروي ذلك عن مجاهدٍ وغيره، وصحَّحه الجمهور، وكان في السنة الثامنة. وقال ابن شهاب: لثلاث عشرةَ بقيتْ من شهر رمضان على رأس ثمان سنين ونصف من الهجرة، وخَرَجَ عليه الصلاة والسلام - على ما أخرجه أحمدُ بسندٍ صحيح عن أبي سعيد - لليلتين خلتا من شهر رمضان[2]، وفي روايةٍ أخرى عن أحمد: لثمانِ عشرةَ[3]، وفي أخرى: لثنتي عشرة[4]. وعند مسلم: لِسِتَّ عشرةَ[5].

---

(١) في البحر ٨/ ٥٢٣.

(٢) مسند أحمد (١١٨٢٥).

(٣) مسند أحمد (١٧١١٢) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٤) مسند أحمد (١١٤١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) صحيح مسلم (١١١٦).

وقال الواقديُّ: خرج ﷺ يومَ الأربعاء لعشرٍ خَلَوْنَ من رمضان بعد العصر[١]. وضعَّفه القسطلاني[٢].

وكان المسلمون في تلك الغزوة عشرة آلافٍ من المهاجرين والأنصار وطوائف من العرب، وفي «الإكليل» اثني عشر ألفاً[٣]. وجُمع بأنَّ العشرة خَرَجَ بها عليه الصلاة والسلام من المدينة، ثم تلاحق الألفان.

والأولى أن يُحمَلَ النصر على ما كان مع الفتح المذكور، فإن كانت السورةُ الكريمةُ نازلةً قبل ذلك فالأمرُ ظاهرٌ، وتتضمَّنُ الإعلام بذلك قبل كونه، وهو من أعلام النبوَّة، وإذا كانت نازلةً بعده فقال الماتريدي في «التأويلات»: إنَّ «إذا» بمعنى «إذ» التي للماضي، ومجيئها بهذا المعنى كثيرٌ في القرآن[٤]. وعليه تكون متعلِّقةً بمقدَّرٍ كـ : كَمُلَ الأمرُ، أو: أتمّ النعمةَ على العباد، أو نحو ذلك، لا بـ «سبِّح»؛ لأنَّ الكلامَ حينئذٍ نحو: أَضْرِبُ زيداً أمس.

وقال بعضُ الأجِلَّة: هي لما يُستقبل كما هو الأكثرُ في استعمالها، وحينئذٍ لم يكن بُدٌّ من أن يُجعل شيءٌ من ذلك مستقبلاً مترقَّباً باعتبار أنَّ فتحَ مكة كان أمَّ الفتوح، والدستورَ لما يكون من بعده، فهو مترقَّبٌ باعتبار ما يدلُّ عليه، وإن كان متحقِّقاً باعتباره في نفسه.

وجُوِّزَ أن يكون الاستقبالُ باعتبار مجموع ما في حَيِّز «إذا»، فمنه ما هو مستقبلٌ وهو ما تضمَّنه قوله سبحانه: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ ولو باعتبارِ آخِرِ داخلٍ، وهو مما لا بأسَ به إن لم يكن النزولُ بعد تمام الدخول.

وقيل: المراد جنسُ نصرِ الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين،

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠١.

(٢) في المواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني) ٢/ ٢٩٩.

(٣) هو: الإكليل في الحديث للحاكم النيسابوري، ونقله المصنف عنه بواسطة القسطلاني في المواهب ٢/ ٢٩٨.

(٤) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٤٠٦، وجاء في التأويلات: «إن» بدل «إذ».

وجنسُ الفتح، فيعمُّ ما كان في أمر مكة ـ زادها الله شرفاً ـ وغيرَه، وأَمْرُ الاستقبال عليه ظاهرٌ.

وأيًّا ما كان فالمرادُ بالمجيء الحصولُ، وهو حقيقةٌ فيه على ما يقتضيه ظاهرُ كلام الراغب[1]. وقال القاضي: مجاز، وتُجوِّزَ به عنه للإشعار بأنَّ المقدَّرات متوجهةٌ من الأزل إلى أوقاتها المعيَّنةِ لها، فتقرُبُ منها شيئاً فشيئاً بحسب الاستعداد والأسباب العادية[2]. وقال عصام الدين: يمكن أن يقال: التعبيرُ بالمجيء للإشارة إلى أنَّ حصولَ نصرته تعالى بمجيء جندٍ يكون بهم النصرُ والفتحُ[3].

والظاهرُ أنَّ الخطابَ في «رأيت» للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والرؤيةُ بصريةٌ، أو علميةٌ متعدِّيةٌ لمفعولين.

و«الناس»: العربُ، و«دين الله»: ملَّةُ الإسلام التي لا دينَ له تعالى يُضافُ إليه غيرها. و«الأفواجُ» جمعُ فَوْجٍ، وهو على ما قال الراغبُ: الجماعةُ المارَّةُ المسرِعةُ[4]. ويُرادُ به مطلقُ الجماعة. قال الحوفي: وقياس جمعه أَفْوُجٌ، ولكن استُثقلتِ الضمةُ على الواو، فَعُدِلَ إلى أفواج.

وفي «البحر»[5]: قياس «فَعْلٍ» صحيحِ العين أن يُجْمَعَ على «أَفْعُل» لا على «أفعال»، ومعتلّ العين بالعكس، فالقياسُ فيه «أفعالٌ» كحوضٍ وأحواض، وشَذَّ فيه «أَفْعُلٌ» كثوبٍ وأَثْوُب.

ونصب «أفواجاً» على الحال من ضمير «يدخلون». وأما جملة «يدخلون» فهي حالٌ من «الناس» على الاحتمال الأول في الرؤية، ومفعولٌ ثانٍ على الاحتمال الثاني فيها.

---

(١) في مفرداته (جاء).
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٦.
(٣) من قوله: وتجوز به. . . إلى هنا ليس في (م).
(٤) المفردات (فوج).
(٥) ٨/ ٥٢٣.

وكونُها حالاً أيضاً بجَعْلِ «رأيت» بمعنى عرفت كما قال الزمخشريُّ[(١)]، تعقَّبه أبو حيان بقوله: لا نعلمُ أنَّ «رأيت» جاءت بمعنى عرفت، فيحتاج في ذلك إلى استثباتٍ[(٢)].

والمراد بدخول الناس في دينه تعالى أفواجاً ـ أي: جماعاتٍ كثيرة ـ: إسلامُهم من غير قتال، وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته عليه الصلاة والسلام، وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين، أخرج البخاريُّ[(٣)] عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتحُ بادرَ كلُّ قومٍ بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياءُ تتلوَّمُ بإسلامها فتحَ مكة، فيقولون: دعوه وقومَهُ، فإن ظهرَ عليهم فهو نبيٌّ.

وعن الحسن قال: لما فتحَ رسول الله ﷺ مكةَ قالت الأعراب: أما إذ ظفر بأهل مكة وقد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجاً[(٤)].

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ: لم يُتوفَّ رسولُ الله ﷺ وفي العرب رجلٌ كافرٌ، بل دخل الكلُّ في الإسلام بعد حُنين والطائف، منهم مَنْ قَدِمَ، ومنهم من قَدِمَ وافدُهُ[(٥)].

وتأوَّلَ ذلك ابن عطية فقال: المراد والله تعالى أعلم العربُ عَبَدَةُ الأوثان، فإنَّ نصارى بني تغلب ما أراهم أسلموا في حياة رسول الله ﷺ، ولكن أعطوا الجزية[(٦)].

ونصَّ بعضُهم على أنهم لم يسلموا إذ ذاك، فالمراد بالناس عَبَدَةُ الأوثان من العرب، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن ونحوهم.

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٩٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٣.
(٣) في صحيحه (٤٣٠٢).
(٤) الكشاف ٤/ ٢٩٤. واليدان: القدرة والطاقة. يقال: مالي بهذا الأمر يدٌ ولا يدان. النهاية ٥/ ٢٩٣.
(٥) الاستيعاب (على هامش الإصابة) ١١/ ٢١٠.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٢.

وقال عكرمة ومقاتل: المراد بالناس أهلُ اليمن، وَفدَ منهم سبع مئة رجلٍ وأسلموا. واحتُجَّ له بما أخرجه ابن جرير من طريق الحسين[١] بن عيسى عن معمر عن الزهري عن أبي حازم عن ابن عباس[٢] قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر الله أكبر، جاء نصرُ الله والفتح، وجاء أهل اليمن» قيل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبهم، ليِّنةٌ طاعتهم، الإيمانُ يمانٍ، والفقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانية»[٣]. وأخرجه أيضاً من طريق عبد الأعلى عن معمر عن عكرمة مرسلاً[٤].

وفيه أنه لا دلالة لذلك على أنَّ المراد بالناس هم أهل اليمن لا غير، وهو ظاهر[٥].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «الإيمان يمانٍ» جاء في حديثٍ أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ[٦] عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «أتاكم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدةً، وألينُ قلوباً، الإيمانُ يمانٍ، والحكمةُ يمانية».

فقيل: قال رسول الله ﷺ ذلك لأنَّ مكةَ يمانيةٌ، ومنها بُعِثَ ﷺ وفشا الإيمان.

وقيل: أراد عليه الصلاة والسلام مَدْحَ الأنصار لأنهم يمانون، وقد تبوَّؤوا الدار والإيمان، وقول ابن عباس في الخبر: في المدينة، يُعارضُ قولَ مَنْ قال: إنَّ ذلك إنما قاله ﷺ بتبوك، وكان بينه وبين اليمن مكةُ والمدينة، وهما دارا الإيمان ومظهراه، ويحتمل تكرُّر القول.

والظاهرُ أنه ثناءٌ على أهل اليمن لإسراعهم إلى الإيمان، وقبولهم له بلا سيف،

---

(١) تصحف في (م) إلى: الحصين.
(٢) تصحف في (م) إلى: أبي عباس.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/٧٠٦، وأخرجه أيضاً ابن حبان (٧٢٩٩)، وهو حديث صحيح لغيره إسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية صحيح ابن حبان.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/٧٠٧.
(٥) من قوله: وفيه... إلى هنا ليس في (م).
(٦) البخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (٥٢)، والترمذي (٣٩٣٥)، وهو عند أحمد (٧٢٠٢).

ويشملُ الأنصار من أهل اليمن وغيرهم، فكأنَّ الإيمان كان في سِنْخِ[1] قلوبهم فقبلوه كما أُنهي إليهم، كمن يجدُ ضالَّته، ومِثْلُه في الثناء عليهم قولُه عليه الصلاة والسلام: «أجِدُ نَفَسَ ربِّكم من قِبَلِ اليمن»[2].

وللشيخ الأكبر قُدِّس سِرُّه في هذا الخبر كلامٌ طويلٌ على ما هو المعروف من مشربه قُدِّسَ سِرُّه[3].

وقال عصام الدين: يحتملُ أن يكونَ الخطابُ في «رأيت الناس» عامًّا لكلِّ مؤمن، ثم قال: ومما يختلجُ في القلب أنَّ المناسبَ بقوله تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ أن يُحمَلَ قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ على فتح باب الدين عليهم. انتهى، وكِلَا الأمرين كما ترى.

وقرأ ابن عباس كما أخرج أبو عبيد[4] وابن المنذر عنه: «إذا جاء فتح الله والنصر»[5].

وقرأ ابن كثير في رواية: «يُدْخَلون» بالبناء للمفعول[6].

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: فنزِّهه تعالى بكلِّ ذِكْرٍ يدلُّ على التنزيه، حامداً له جلَّ وعلا زيادةً في عبادته والثناء عليه سبحانه؛ لزيادة إنعامه سبحانه عليك، فالتسبيحُ التنزيهُ، لا التلفُّظ بكلمة «سبحان الله» والباءُ للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، و«بحمد»[7] مضافٌ إلى المفعول، والمعنى على الجمع بين تسبيحه تعالى ـ وهو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به عليه عزَّ وجلَّ من النقائص ـ وتحميده، وهو إثباتُ ما يليقُ به تعالى من المحامد له، لِعِظَمِ ما أنعم سبحانه به عليه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) السِّنْخُ: المنبت. القاموس المحيط (سنخ).
(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) من قوله: وللشيخ... إلى هنا ليس في (م) وضرب عليها في النعمانية (ب).
(٤) في (م): أبو عبيدة. وهو تصحيف.
(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٩، والدر المنثور ٦/ ٤٠٦، وعنه نقل المصنف.
(٦) الكشاف ٤/ ٢٩٤، والبحر ٨/ ٥٢٣.
(٧) في (م): والحمد.

وقيل: أي: نزِّهْهُ تعالى عن العجز في تأخير ظهور الفتح، واحمده على التأخير، وَصِفْهُ تعالى بأنَّ توقيتَ الأمور من عنده ليس إلا لحكمةٍ لا يعرفها إلا هو عزَّ وجلَّ. وهو كما ترى.

ويجوز أن يراد بالتسبيح التلفُّظ بكلمة «سبحان الله» أو «ربي» مثلاً، أي: فقل سبحان الله حامداً له[1]. وأيِّدَ ذلك بما في «الصحيحين» عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأوَّلُ القرآنَ[2]. تعني هذا مع قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: اطلب منه أن يغفر لك.

وكذا كما في «مسند» الإمام أحمد، و«صحيح» مسلم[3] عن عائشة أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إنَّ ربي كان أخبرني أنْ سأرى علامةً في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أُسبِّحَ بحمده وأستغفره» إلخ.

وروى ابن جرير[4] من طريق حفص بن عاصم عن الشعبي عن أمِّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلا قال: «سبحان الله وبحمده» قال: «إني أُمرتُ بها» وقرأ السورة. وهو غريب.

وفي «المسند» عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ) كان يُكثِرُ إذا قرأها وركع أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثاً[5].

وجُوِّزَ أن تكون الباء للاستعانة، والحمدُ مضافٌ إلى الفاعل، أي: سَبِّحهُ

(١) من قوله: ويجوز... إلى هنا ليس في (م).
(٢) صحيح البخاري (٤٩٦٨)، وصحيح مسلم (٤٨٤).
(٣) أحمد (٢٤٠٦٥)، ومسلم (٤٨٤).
(٤) في تفسيره ٢٤/ ٧١١.
(٥) مسند أحمد (٣٦٨٣).

بما حَمِدَ سبحانه به نفسه. قال ابن رجب: إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ، فتسبيحُ المعتزلة يقتضي تعطيل كثيرٍ من الصفات، وقد كان بشرٌ المريسي يقول: سبحان ربي الأسفل. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. والظاهر الملابسة.

وجُوِّز أن يكون التسبيحُ مجازاً عن التعجُّب بعلاقة السببية، فإنَّ مَنْ رأى أمراً عجيباً قال: سبحان الله، أي: فتعجَّبْ لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك وبالِ أحدٍ من أن يَغلبَ أحدٌ على أهل الحرم، واحمده تعالى على صنعه. وهذا التعجُّبُ تعجُّبُ متأملٍ شاكرٍ يصحُّ أن يُؤمَرَ به، وليس الأمرُ بمعنى الخبر بأنَّ هذه القصة من شأنها أن يتعجَّبَ منها كما زعم ابن المنير[1]، والتعليلُ بأنَّ الأمرَ في صيغة التعجُّبِ ليس أمراً بيِّن السقوطِ، نعم هذا الوجه ليس بشيءٍ، والأخبارُ دالةٌ على أنَّ ذلك أمرٌ له ﷺ بالاستعداد للتوجُّه إلى ربه تعالى، والاستعداد للقائه بعدما أكمل دينه، وأدَّى ما عليه من البلاغ، وأيضاً ما ذكرناه من الآثار آنفاً لا يساعدُ عليه.

وقيل: المراد بالتسبيح الصلاةُ لاشتمالها عليه، ونقله ابن الجوزي[2] عن ابن عباس، أي: فَصَلِّ له تعالى حامداً على نعمه، وقد روي أنه ﷺ لَمَّا دخل مكة صلّى في بيت أمِّ هانئ ثمانِ ركعات[3]. وزَعَمَ بعضُهم أنه صلّاها داخلَ الكعبة، وليس بالصحيح.

وأيَّاما كان فهي صلاةُ الفتح، وهي سنَّةٌ، قد صلّاها سعدٌ يوم فتح المدائن[4]. وقيل: صلاةُ الضحى. وقيل: أربعٌ منها للفتح، وأربعٌ للضحى. وعلى كلٍّ ليس فيها دليلٌ على أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة، والأخبار أيضاً تساعد على خلافه.

واستغفاره ﷺ قيل: لأنه كان دائماً في الترقِّي، فإذا ترقَّى إلى مرتبةٍ استغفرَ لما قبلها.

وقيل: مما هو في نظره الشريف خلافُ الأولى بمنصبه المنيف.

---

(١) في الانتصاف ٤/ ٢٩٤.

(٢) في زاد المسير ٩/ ٢٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٨٨٧)، والبخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦).

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ١٦، والبداية والنهاية ١٠/ ١٣.

وقيل: عمَّا كان من سهوٍ ولو قبل النبوَّة.

وقيل: لتعليم أمته ﷺ.

وقيل: هو استغفارٌ لأمته عليه الصلاة والسلام أي: واستغفره لأمتك.

وجوَّزَ بعضُهم كونَ الخطاب في «رأيت» عامًّا، وقال هاهنا: يجوز حينئذٍ أن يكون الأمر بالاستغفار لمن سواه عليه الصلاة والسلام، وإدخاله ﷺ في الأمر تغليبٌ. وهذا خلافُ الظاهر جدًّا، وأنت تعلم أنَّ كلَّ أحدٍ مقصِّرٌ عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله جلَّ جلاله وعظمته سبحانه، وإنما يؤدِّيها على قَدْرِ ما يعرفُ، والعارفُ يعرفُ أنَّ قَدْرَ الله عزَّ وجل أعلى وأجلُّ من ذلك، فهو يستحي من عمله، ويرى أنه مقصِّرٌ، وكلّما كان الشخصُ بالله تعالى أَعْرَفَ، كان له سبحانه أَخْوفَ، وبرؤية تقصيره أَبْصَرَ، وقد كان كَهْمَس[1] يُصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعة، فإذا صلَّى أخذ بلحيته ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كلِّ سوء، فوالله ما رضيتك لله عزَّ وجلَّ طَرْفَةَ عين.

وعن مالك بن دينار: لقد هممتُ أن أوصي إذا متُّ أن يُنْطَلَق بي كما يُنطَلَقُ بالعبد الآبق إلى سيِّده، فإذا سألني قلت: يا ربِّ إني لم أرضَ لك نفسي طَرْفَةَ عين.

فيمكن أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لما يَعرِفُ من عظيم جلال الله تعالى وعظمته سبحانه، فيرى أنَّ عبادته - وإن كانت أجلّ من عبادة جميع العابدين - دونَ ما يليقُ بذلك الجلال وتلك العَظَمة التي هي وراءَ ما يخطرُ بالبال، فيستحيي ويهرعُ إلى الاستغفار.

وقد صحَّ أنه عليه الصلاة والسلام كان يستغفرُ الله في اليوم والليلة أكثرَ من سبعين مرة[2].

---

(١) ابن الحسن التميمي الحنفي البصري العابد، أبو الحسن، من كبار الثقات، حدث عن الحسن البصري وجماعة، وحدث عنه ابن المبارك ومعتمر ووكيع وخلق كثير. توفي سنة (١٤٩هـ). سير أعلام النبلاء ٦/ ٣١٦.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧٩٣)، والبخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وللإشارة إلى قصور العابد عن الإتيان بما يليقُ بجلال المعبود وإن بذلَ المجهودَ، شُرِعَ الاستغفارُ بعد كثيرٍ من الطاعات، فذكروا أنه يُشرَعُ لمصلِّي المكتوبة أن يستغفرَ عَقِبَها ثلاثاً، وللمتهجِّدِ في الأسحار أن يستغفرَ ما شاء الله تعالى، وللحاجِّ أن يستغفرَ بعد الحجِّ، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وروي أنه يُشرَعُ لختم الوضوء. وقالوا: يُشرَعُ لختم كلِّ مجلسٍ، وقد كان ﷺ يقول إذا قام من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»[(١)].

ففي الأمر بالاستغفار رمزٌ من هذا الوجه على ما قيل إلى ما فُهِمَ من النَّعي، والمشهورُ أنَّ ذلك للدلالة على مُشارفة تمام أمر الدعوة، وتكامل أمر الدين، والكلامُ وإن كان مشتملاً على التعليق لكنَّ ذلك واقعٌ في معرِض الوعد، ووعدُ الكريم يدلُّ على قُرْبِ الموعود به، لأنَّ أهنى البرِّ عاجله، ولذا قال البلغاء: جعل الله عُمَرَ عِدَاتك، كعمر عُدَاتِكَ[(٢)].

وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار، قيل: على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق، كما قيل: ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله تعالى قبله؛ لأنَّ جميع الأشياء مرايا لِتَجلِّيه جلَّ جلاله، وذلك لأنَّ في التسبيح والحمد توجُّهاً بالذات لجلال الخالق وكماله، وفي الاستغفار تَوَجُّهاً بالذات لحال العبد وتقصيراته.

ويجوز أن يكون تأخيرُ الاستغفار عنهما لما أشرنا إليه في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار. وقيل: في تقديمها عليه تعليمُ أدب الدعاء، وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه[(٣)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي: منذ خَلَقَ المكلَّفين، أي: مبالغاً في قبول توبتهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) من قوله: لكن ذلك واقع... إلى هنا ليس في (م). والعداة بكسر العين جمع العِدَة مصدر وَعَد، والعُداة بضمها جمع العادي بمعنى العدو. ينظر القاموس (وعد) و(عدا).

(٣) في الأصل: المسؤول عنه.

فليكنِ المستغفرُ التائبُ متوقِّعاً للقبول، فالجملةُ في موضع التعليل لما قبلها، واختيارُ «توَّاباً» على «غفَّاراً» مع أنه الذي يستدعيه «استَغْفِره» ظاهراً للتنبيه ـ كما قال بعض الأجِلَّةِ ـ على أنَّ الاستغفار إنما ينفعُ إذا كان مع التوبة، وذكر ابن رجب أنَّ الاستغفارَ المجرَّدَ: هو التوبةُ مع طَلَبِ المغفرة بالدعاء، والمقرونَ بالتوبة ـ كـ: أستغفر[1] الله تعالى وأتوب إليه سبحانه ـ هو طلبُ المغفرة بالدعاء فقط.

وقال أيضاً: إنَّ المجرَّدَ طلبُ وقايةِ شَرِّ الذنب الماضِي بالدعاء والندم عليه، ووقاية شَرِّ الذنب المتوقَّع بالعزم على الإقلاع عنه. وهذا الذي يمنعُ الإصرارَ كما جاء: «ما أَصرَّ مَن استغفرَ ولو عاد في اليوم سبعين مرَّةً»[2]، و: «لا صغيرةَ مع الإصرار ولا كبيرةَ مع الاستغفار»[3]، والمقرون بالتوبة مختصٌّ بالنوع الأول، فإنْ لم يصحبهُ الندمُ على الذنب الماضي فهو دعاءٌ محضٌ، وإن صَحِبَهُ نَدَمٌ فهو توبة. انتهى.

والظاهر أنَّ ذلك الدعاء المحضَ غيرُ مقبولٍ، وفيه من سوء الأدب مع الله تعالى ما فيه.

وقال بعض الأفاضل: إنَّ في الآية احتباكاً[4]، والأصل: واستغفره إنه كان غفَّاراً، وتُبْ إليه إنه كان توَّاباً. وأُيِّدَ بما قدَّمناه من حديث الإمام أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

وحَمْلُ الزمان الماضي على زمان خَلْقِ المكلَّفين هو ما ارتضاه غيرُ واحدٍ[5].

---

(١) في (م): فاستغفر.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٤) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٨٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وفي إسناده أبو شيبة الخراساني، قال عنه الذهبي في الميزان ٤/ ٥٣٧: أتى بخبر منكر. ثم ذكر له هذا الحديث. وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٢٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.
وجاء في هامش الأصل: أخرجهما ابن أبي الدنيا.

(٤) هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.

(٥) منهم البيضاوي وأبو السعود، وقيل: إنه ردٌّ لما سيأتي من كلام الماتريدي. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٧.

وقال الماتريدي في «التأويلات»[١] أي: لم يزلْ توّاباً، لا أنه سبحانه توَّابٌ بأمرٍ اكتسبه وأحدثه على ما يقوله المعتزلة من أنه سبحانه صارَ توّاباً إذ أنشأ الخلقَ فتابوا فَقَبِلَ توبتهم، فأما قبل ذلك فلم يكن تواباً.

وَرُدَّ عليه بأنَّ قبول التوبة من الصفات الإضافية، ولا نزاعَ في حدوثها.

واختار بعضُهم ما ذهب إليه الماتريدي، على أنَّ المرادَ أنه تعالى لم يزلْ بحيثُ يقبلُ التوبةَ، ومآله قِدَمُ منشأ قبولها من الصفات اللائقة به جلَّ شأنه، وفي ذلك ممَّا يقوِّي الرجاءَ به عزَّ وجلَّ ما فيه. وصَحَّ: «لو لم تذنبوا لَذَهَبَ الله تعالى بكم ولجاءَ بقومٍ يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم»[٢].

وفي الاستغفار خيرُ الدنيا والآخرة، أخرج الإمام أحمد من حديث عطيةَ عن أبي سعيدٍ مرفوعاً: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيوم وأتوبُ إليه، غَفَرَ [اللهُ] له ذنوبه وإن كانت مثل زَبَدَ البحر، وإن كانت مثلَ رَمْلٍ عالج، وإن كانت عَدَدَ وَرَقِ الشجر»[٣].

وأخرج أيضاً من حديث ابن عباس: «مَنْ أكثرَ من الاستغفار جَعَلَ الله تعالى له من كلِّ همٍّ فَرَجاً»[٤].

وأنا أقولُ: سبحان الله وبحمده، أستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه، وأسأله أن يجعلَ لي من كلِّ همٍّ فَرَجاً، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، بحُرْمة كتابه وسَيِّد أحبابه ﷺ.

---

(١) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٤٠٧.
(٢) أخرجه أحمد (٨٠٨٢)، ومسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) مسند أحمد (١١٠٧٤). وما بين حاصرتين استدرك منه.
(٤) مسند أحمد (٢٢٣٤).